﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، و قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وهم الماديون الَّذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس من الأشياء، خلقه الله من غير أب في رحم فتاة عذراء لم يمسسها بشرٌ لا في العلانية بالزَّوجية ولا في الخفاء بالبغاء، فهي عفيفة حَصَانٌ، وكان كلام عيسى في المهد هو آية صدقها في هذا، فأصبحت هي آية و هو آية.

فمولد عيسى ابن مريم عليه السلام بهذه الطَّريقة آية عظيمةٌ لكلُّ من يشكُّ في قدرة الله تعالى وفي شمولها لخرق العادات الَّتي دبَّر بها سننه الكونية.

مولد المسيح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٢-٢٦].

فمـــن خلال هذه الآيات العظيمة نتابـــع بكلِّ إكبارٍ مراحل خلق عيســـى ابن مريم عليه السلام وولادته، وما تمَّ فيهما وخلالهما، وما سيكون بعدهما من الأمور العِظام.

فمريم ابنة عمران غادرت محراب عبادتها مرتين:

الأولى، عندما اختلت بنفســـها في مكان شـــرقي بيت المقدس متَّخذةً لنفسها من دون أهلها حجاباً، فالتقت بملاك ربِّها جبريل عليه السلام الَّذي ساق لها البشارة، وقام بالنَّفخ فيها «كلمة الله» بإذن ربِّها، فَحَمَلَتْ حملها.

الثَّانية، عندما شعرت بقرب الوضع، وألجأها المخاض إلى مـــكانٍ ما بعيداً عن العمران، حيث جـــذع النَّخلة، فأعمل فيها الطَّلق سياطه، فألقت بنفسها مكتربةً مضطربةً تمنَّت لو أنَّها قد ماتت قبل هذا الواقع الَّذي تحياه و الألم الَّذي يعتصرها، وكانت كالشَّيء الَّذي من شأنه أن يُنْسَى، ولا يتذكَّره أحدٌ لتفاهته.

و وضعت حَمْلَها الَّذي ناداها بَعد ذلك من تَحتِها قائلاً لها: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا (١) ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤-٢٥].

(١) الجدول الصَّغير من الماء يجري.

إلى أن قال لها ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. فالله قد تكفَّل بها، فأجرى لها المـــاء، وأنضج لها الرُّطب لتأكل، وتشـــرب لتصمـــد أمام آلام النِّفـــاس، وتّقْوى عَلى القِيـــامِ بواجِبها نَحو طفلِهـــا الرَّضيع، وما ترتَّب على ذلك من وجوب هُدوءِ النَّفس والرِّضى بما قسم الله، فلا تحزن، ولا تتمنَّى الموت.

ثَّم هو ينِّبهها إلى ناحية مُهمَّة جدّاً تحسُّـــباً لما سيقع، وقطعاً لـــكلِّ زيادةٍ في الحديث أو نقصانٍ من قومها، فقال لها: إن أنت رأيت من البشـــر أحـــداً أيّاً كان، فأشـــعريه بأنَّك قد صمت عن الكلام وفاءً لنذرٍ نذرتِه للرَّحمن فلن تكلِّمي اليوم إنسيّاً. فلو أنَّها خاضت في الحديث مع كل من يسألها أو بعضهم فلن يصدِّقها أحدٌ فيما تقول، وتدعي، وربما ألحقوا بها أو بطفلها الأذى.